المحاضرة السادسة

الاتجاهات الرئيسية في الإمبريالية الثقافية والإعلام

1. مفهوم الإمبريالية الثقافية (نشأة المصطلح وتطوره)

يعتبر موضوع الإمبريالية الثقافية ذا صلة وثيقة بالعالم المعاصر، حيث نشهد، وفقًا للعديد من المؤرخين والعلماء السياسيين، تحولًا من الفكر الليبرالي إلى الأيديولوجيا الإمبريالية. يزداد الأمر تشويقًا بحقيقة زوال الإمبراطوريات الكلاسيكية (مثل الإمبراطورية الروسية والعثمانية والبريطانية وغيرها) خلال القرن العشرين. وفي مطلع القرن الحادي والعشرين، يبرز الباحثون بشكل متزايد ظاهرة ظهور إمبراطوريات جديدة.

تختلف الإمبراطوريات الكلاسيكية والجديدة في أساليب سيطرتها على المناطق التابعة لها، أي تختلف في أنواع إمبرياليتها. نستخدم هنا مفهوم "الإمبريالية" بأوسع تعريفاته استنادًا إلى معناه الاصطلاحي. تعني كلمة "إمبريالية (imperium) "باللغة اللاتينية القوة العليا، والقوة العسكرية العليا، والأراضي التي تسيطر عليها هذه القوة. لذلك، يمكن استخدام كلمة "إمبريالية" لوصف أشكال مختلفة يهيمن فيها بلد على آخر.

تبني الإمبراطوريات الجديدة سياساتها على أساس أنواع مختلفة من القوة ("القوة الناعمة"). وبالتالي تتغير الإمبريالية نفسها، لتظهر وتتطور كإمبريالية ثقافية، من بين أشكال أخرى. من المهم التأكيد على أن الإمبريالية الحديثة لا تُحدد بحدود الإمبراطوريات، بل بالعلاقات بين الدول التي تتنافس من أجل الهيمنة على الصعيد العالمي (ما يسمى بالإمبريالية الخارجية)، أو داخل الدولة (ما يسمى بالإمبريالية الداخلية) التي تطور علاقة إمبريالية للهيمنة بين عاصمتها وأقاليمها (علاقات "المركز - الأطراف").

في مجالات الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وعلم الاجتماع والأخلاق، يُشار إلى الإمبريالية الثقافية بأنها فرض مجتمع مهيمن سياسياً أو اقتصادياً عادةً لأوجه مختلفة من ثقافته على مجتمع آخر أقل هيمنة. يعتبر هذا المصطلح ثقافيًا لأن العادات والتقاليد والدين واللغة والأعراف الاجتماعية والأخلاقية وغيرها من جوانب المجتمع الفارض تختلف، وإن كانت غالبًا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالأنظمة الاقتصادية والسياسية التي تشكل المجتمع الآخر. وهو كذلك شكل من أشكال الإمبريالية حيث يفرض المجتمع الفارض سلطة نمط حياته على السكان الآخرين بالقوة، إما عن طريق تحويل أو استبدال جوانب من ثقافة المجتمع الأقل هيمنة.

على الرغم من أن مصطلح "الإمبريالية الثقافية" لم يظهر في الخطاب الأكاديمي أو الشعبي حتى الستينيات، إلا أن هذه الظاهرة لها تاريخ طويل. تاريخيًا، ارتبطت ممارسات الإمبريالية الثقافية دائمًا تقريبًا بالتدخل العسكري والغزو. يقدم صعود وامتداد الإمبراطورية الرومانية بعضًا من أقدم الأمثلة على الإمبريالية الثقافية في تاريخ الحضارة الغربية، ويسلط الضوء على كل من الجوانب السلبية والإيجابية لهذه الظاهرة. خلال فترة تعرف باسم "ال Pax Romana" (السلام الروماني)، حقق الرومان

فترة طويلة إلى حد ما من السلام والاستقرار النسبيين بين الأراضي التي كانت تعاني من الحروب في السابق، وذلك من خلال نظام قانوني موحد (انظر القانون الروماني) والتطورات التكنولوجية والبنية التحتية الراسخة. ومع ذلك، تحقق هذا السلام جزئيًا من خلال فرض عملية "التثقيف " (acculturation)على السكان المتنوعين ثقافيًا الذين غزتهم روما.

في وقت لاحق، أصبحت الإمبريالية الثقافية إحدى الأدوات الأساسية للاستعمار. وبينما كان الاستعمار دائمًا تقريبًا يُبادر إليه عن طريق نوع من التدخل العسكري، فقد تحققت آثاره الكاملة من خلال ممارسات الإمبريالية الثقافية. بدافع من الإيمان بتفوق نمط حياتهم الخاص، استخدم المستعمرون القانون والتعليم و/أو القوة العسكرية لفرض جوانب مختلفة من ثقافتهم على السكان المستهدفين. بدافع جزئي من الرغبة في تطهير السكان المحليين من العادات والتقاليد التي يُنظر إليها على أنها همجية وغير متحضرة، عرف المستعمرون أيضًا أن أفضل طريقة لتخفيف مقاومة المستعمَرين هي القضاء على جميع آثار نمط حياتهم السابق قدر الإمكان.

لإمبريالية الثقافية كانت موجودة قبل وقت طويل من تحول الولايات المتحدة إلى قوة عالمية. في أبسط أشكالها، تصف الإمبريالية الطرق التي تفرض بها دولة ما سيطرتها على أخرى. ومثلما حكمت بريطانيا الإمبريالية المستعمرين الأمريكيين اقتصاديًا، كذلك أثرت بريطانيا بشكل كبير على ثقافة المستعمرات. كان المزيج الثقافي لا يزال متنوعًا - حيث استقر العديد من الهولنديين والألمان أيضًا - لكن الأغلبية الحاكمة من البريطانيين السابقين أدت إلى سيطرة الثقافة البريطانية بشكل عام.

اليوم، يميل مصطلح الإمبريالية الثقافية إلى وصف دور الولايات المتحدة كقوة عظمى ثقافية في جميع أنحاء العالم. استوديوهات الأفلام الأمريكية أكثر نجاحًا بشكل عام من نظيراتها الأجنبية، ليس فقط بسبب نماذج أعمالها ولكن أيضًا لأن مفهوم هوليوود أصبح من السمات المميزة لصناعة الأفلام العالمية الحديثة. يمكن للشركات متعددة الجنسيات غير الحكومية الآن أن تقود الثقافة العالمية. هذا ليس جيدًا تمامًا ولا سيئًا تمامًا. من ناحية، يمكن للمؤسسات الثقافية الأجنبية تبني نماذج أعمال أمريكية ناجحة، والشركات على استعداد تام للقيام بأي شيء يجعلها تجني أكبر قدر من المال في سوق معينة - سواء أكان ذلك يعني منح السكان المحليين فرصة لصنع أفلام، أو إنتاج أفلام متعددة الثقافات مثل فيلم "مليونير المتسول" لعام 2008. ومع ذلك، فإن للإمبريالية الثقافية آثار سلبية محتملة أيضًا. من انتشار المُثُل الغربية للجمال إلى التدهور المحتمل للثقافات المحلية حول العالم، يمكن أن يكون للإمبريالية الثقافية تأثير سريع ومدمر.

2. الهيمنة الثقافية:

لفهم موضوع الإمبريالية الثقافية بشكل أفضل، من المهم أن نلقي نظرة على أفكار أحد المنظرين المؤسسين لها، أنطونيو غرامشي. تأثر الفيلسوف والناقد الإيطالي غرامشي تأثيرا كبيرا بنظريات وكتابات كارل ماركس، وهو من ابتكر مفهوم الهيمنة الثقافية لوصف سيطرة مجموعة على أخرى. وعلى عكس ماركس الذي اعتقد أن عمال العالم سيتحدون في النهاية ويسقطون الرأسمالية، رأى غرامشي بدلاً من ذلك أن الثقافة والإعلام يمارسان تأثيراً قوياً على المجتمع لدرجة أنهما يمكنهما فعلياً

التأثير على العمال ليقبلوا بنظام اقتصادي لا يصب في مصلحتهم الاقتصادية. ويتجسد هذا القول بأن وسائل الإعلام يمكنها التأثير على الثقافة والسياسة في مفهوم الحلم الأمريكي. في هذه القصة الخيالية التي ينتقل فيها البطل من الفقر إلى الثراء، يمكن للعمل الجاد والموهبة أن يقودا إلى حياة ناجحة بغض النظر عن البدايات. بطبيعة الحال، هناك بعض الحقيقة في هذا الأمر، لكنه الاستثناء وليس القاعدة. ظلت أفكار ماركس في صميم معتقدات غرامشي. وفقًا لمفهومه، يستطيع المسيطرون على رأس المال (الهيمنة) ممارسة القوة الاقتصادية، بينما يمارس المهيمنون على الثقافة القوة الثقافية. ينبثق هذا المفهوم للثقافة من صراع الطبقات الماركسية، حيث تسيطر مجموعة على أخرى ويظهر الصراع. إن مفهوم غرامشي للهيمنة الثقافية ذو صلة بالعصر الحديث ليس بسبب احتمال قيام طبقة محلية مالكة للقمعى الفقراء، ولكن بسبب القلق من أن العولمة المتزايدة ستسمح لثقافة واحدة أن تفرض سيطرتها بشكل كامل بحيث تطرد جميع المنافسين الآخرين.

يعتبر الخطر الرئيسي للإمبريالية الثقافية هو احتمال أن تطغى الأذواق الأمريكية على الثقافات المحلية حول العالم. لا ينطبق مصطلح "مك McDonaldization" الذي يصف انتشار نمط عمل ماكدونالدز على مطاعم ماكدونالدز نفسها فقط، والتي تنتشر فروعها في كل بلد على ما يبدو، بل ينطبق على أي صناعة تطبق تقنية ماكدونالدز على نطاق واسع. ابتكر هذا المفهوم جورج ريتزر في كتابه "مجتمع ماكدونالدز" (1993)، وهو ينبع من عملية العقلنة. مع "مك دونالدزة"، يتم تطبيق أربعة جوانب من العمل بشكل مبالغ فيه: الكفاءة، والحسابية، والإمكانية التنبؤية، والسيطرة. تمثل هذه الأشياء الأربعة بعض الجوانب الرئيسية للأسواق الحرة. يؤدي تطبيق مفاهيم السوق المالية المُحسّنة على المنتجات الثقافية والبشرية مثل الطعام إلى فرض "مك دونالدزة" للمعايير العامة والاتساق في جميع أنحاء صناعة عالمية.

كما هو متوقع، يعتبر ماكدونالدز المثال الرئيسي على هذا المفهوم. على الرغم من اختلاف مطعم الوجبات السريعة إلى حد ما في كل بلد - على سبيل المثال، تقدم مطاعم ماكدونالدز في الهند قائمة خالية من لحم الخنزير ولحم البقر مراعاة للممارسات الدينية المحلية - إلا أن نفس المبادئ الأساسية تنطبق بطريقة خاصة بالثقافة. تظل علامة الشركة التجارية هي نفسها أينما كانت؛ وشعار "أنا أحب ذلك" لا مفر منه، كما أن الأقواس الذهبية، وفقًا لإريك شلوسر في كتاب "أمة الوجبات السريعة"، "أكثر شهرة من الصليب المسيحي". ومع ذلك، والأهم من ذلك، يظل النموذج التجاري لماكدونالدز متشابهًا نسبيًا بين بلد وآخر. على الرغم من وجود اختلافات ثقافية محددة، فإن أي مطعم لماكدونالدز في منطقة معينة يقدم قائمة طعام متشابهة تقريبًا مع أي مطعم آخر. بعبارة أخرى، بغض النظر عن المكان الذي من المحتمل أن يسافر إليه المستهلك في نطاق معقول، تظل خيارات القائمة والمنتج الناتج متسقة.

3. أهم نظريات الإمبريالية الثقافية:

أولا: نظرية التبعية في الإمبريالية الثقافية:

نشأة النظرية:

نشأت نظرية التبعية في سياق **نظرية التبعية الاقتصادية** في أمريكا اللاتينية في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. ركزّ مفكرون مثل **راؤول بريش** على العلاقة بين الدول المتقدمة والدول النامية، مشيرين إلى أن الدول المتقدمة تستغل موارد الدول النامية وتُعيق تنميتها من خلال التجارة غير المتكافئة والاستثمار الأجنبي المباشر.

تطبيق النظرية على الثقافة:

تم تطبيق نظرية التبعية على **السياق الثقافي** في السبعينيات من قبل مفكرين مثل **جوان فرانك** و **كاترين موراي** .جادلوا بأن **الإمبريالية الثقافية** هي شكل من أشكال التبعية الاقتصادية، حيث تُستخدم الثقافة من قبل الدول المتقدمة للحفاظ على هيمنتها على الدول النامية.

مبادئ نظرية التبعية الثقافية:

- **العلاقة المركز-المحيط** :تفترض النظرية وجود علاقة غير متكافئة بين الدول المتقدمة ("المركز") والدول النامية ("المحيط.("

- **التدفق الثقافي غير المتكافئ** :تُصدر الدول المتقدمة منتجاتها الثقافية (مثل الأفلام والبرامج التلفزيونية والموسيقى) إلى الدول النامية، بينما تُقيد تدفق المنتجات الثقافية من الدول النامية إلى الدول المتقدمة.

- **التبعية الثقافية** :تُصبح الدول النامية معتمدة على الثقافة المهيمنة للدول المتقدمة، مما يؤدي إلى تهميش الثقافات المحلية.

- **المقاومة الثقافية** :قد تقاوم المجتمعات المحلية الإمبريالية الثقافية من خلال الحفاظ على ثقافاتها وتقاليدها الخاصة، أو من خلال إعادة تفسير المنتجات الثقافية المهيمنة بطرق تناسب احتياجاتها.

انتقادات نظرية التبعية الثقافية:

- **بساطة مفرطة** :يُجادل بعض النقاد بأن النظرية تُقدم رؤية بسيطة للغاية للعلاقة بين الثقافة والقوة، ولا تأخذ بعين الاعتبار العوامل المعقدة الأخرى التي تؤثر على التبادل الثقافي.

- **إغفال الهيمنة الداخلية** :قد تُغفل النظرية أشكال الهيمنة الثقافية داخل الدول النامية نفسها، مثل هيمنة النخب الحاكمة على الثقافة الشعبية.

- **صعوبة القياس** :قد يكون من الصعب قياس "التبعية الثقافية" بشكل موضوعي.

ثانيًا: نظرية الهيمنة الثقافية: نشأة النظرية:

طور **أنطونيو غرامشي**، المفكر الماركسي الإيطالي، نظرية الهيمنة الثقافية في أواخر عشرينيات القرن الماضي. سعى غرامشي إلى شرح سبب عدم حدوث ثورة البروليتاريا، كما تنبأ **كارل ماركس**.

مفاهيم أساسية:

- **الهيمنة الثقافية** :هي سيطرة الطبقة الحاكمة على الأفكار والقيم والمعتقدات في المجتمع.

- **الموافقة** :تسعى الطبقة الحاكمة إلى الحصول على موافقة المحكومين بدلاً من إجبارهم على الخضوع بالقوة.

- **المجتمع المدني** :هو المجال الذي توجد فيه المؤسسات الثقافية، مثل المدارس والجامعات ووسائل الإعلام.

- **المثقفون العضويون** :هم المثقفون الذين يروجون لأيديولوجية الطبقة الحاكمة.

- **المثقفون التقليديون** :هم المثقفون الذين يمثلون مصالح الطبقات الاجتماعية المُهَمشة.

آليات الهيمنة الثقافية:

- **المؤسسات الثقافية** :تُستخدم المدارس والجامعات ووسائل الإعلام لنشر أفكار الطبقة الحاكمة وقيمها.

- **الصناعة الثقافية** :تُنتج السينما والتلفزيون والموسيقى وغيرها من أشكال الفن الشعبي صورًا ورسائل تُعزز أيديولوجية الطبقة الحاكمة.

- **الدين** :غالبًا ما تُستخدم المؤسسات الدينية لنشر قيم ومعتقدات الطبقة الحاكمة.

- **اللغة** :يمكن استخدام اللغة لتعزيز سلطة الطبقة الحاكمة وإقصاء الآخرين.

مقاومة الهيمنة الثقافية:

- **الوعي الطبقي** :يمكن للأفراد أن يقاوموا الهيمنة الثقافية من خلال تطوير وعي طبقي، أي فهم أن مصالحهم تختلف عن مصالح الطبقة الحاكمة.

- **المثقفون التقليديون** :يمكن للمثقفين التقليديين أن يلعبوا دورًا في نشر أفكار ومعتقدات الطبقات الاجتماعية المُهَمشة.

- **الحركات الاجتماعية** :يمكن للحركات الاجتماعية أن تُقاوم الهيمنة الثقافية من خلال التحدي للقيم والمعتقدات المهيمنة.

أهمية نظرية الهيمنة الثقافية:

- تُقدم نظرية الهيمنة الثقافية تحليلًا قويًا لكيفية الحفاظ على السلطة في المجتمعات الرأسمالية.

- تُساعدنا النظرية على فهم كيفية تشكيل أفكارنا وقيمنا.

- تُلهمنا النظرية على العمل من أجل التغيير الاجتماعي.

انتقادات نظرية الهيمنة الثقافية:

- التعميم المفرط :قد تُقدم النظرية رؤية بسيطة للغاية للعلاقة بين الثقافة والقوة.

- إغفال دور الفرد :قد تُغفل النظرية دور الفرد في مقاومة الهيمنة الثقافية.

- صعوبة القياس :قد يكون من الصعب قياس "الهيمنة الثقافية" بشكل موضوعي.

قائمة المراجع (المحاضرة السادسة):

1. Anderson, K. B. (2000). The culture of critique. Lanham, MD: Rowman & Littlefield Publishers.
2. Ashcroft, B., Griffiths, G., & Tiffin, H. (1998). The post-colonial critic. London: Routledge.
3. Bourdieu, D. (1997). Global media and communication. London: Sage.
4. Honneth, A. (2005). The Frankfurt school and critical theory. New York: Columbia University Press.
5. Hobson, J. M., & Yates, M. P. (Eds.). (2006). Cultural imperialism: A critical reader. London: Sage.
6. Laclau, E., & Mouffe, C. (2001). Hegemony. London: Verso.
7. Ritzer, G. (1993). The McDonaldization of society. Thousand Oaks, CA: Sage Publications.
8. Said, E. W. (1978). Orientalism. New York: Vintage Books.
9. Said, E. W. (1993). Culture and imperialism. New York: Vintage Books.